مايا كوفسكي : الحب .. والشعر

رغم أن « فلاديمير مياكوفسكي » يطلق عليه لقب (شاعر الثورة) ، فان القليلين جدا عرفوا بعلاقته العاصفة مع « ليلي برك » .

في هذه المقتطفات من كتاب « أنا أحب » لآن وساموئيل جارترز ، نقرأ صفحات مطوية من حياة هذا الشاعر المتوهج الذي التحمت حياته بشعره .

ترجمة : وحيدة المقدادي

رجل فوق الاعتيادي ، ثائر في خدمة الثورة . وقف كالصخرة ضد المد الجارف لتيار المحافظة عام ١٩٢٩ . وظل يعرف حتى اليوم بشاعر الثورة رغم انه كان ينظر اليه كمثال للفردية الجامحة .

في عام ١٩١٧ ، وفي سن الرابعة والعشرين ، أصبح « مياكوفسكي » أكبر من الحياة ، بقامة مديدة تتجاوز الستة أقدام وعبقرية مذهلة . وجد في ثورة ١٩١٧ (ثورته) ، وفي نفسه (معجزة لم يسبق لها مثيل في القرن العشرين) . كتب وألقى القصائد ـ حين لم يكن الورق يكفي للطباعة ـ على شرف روسيا وشرف الثورة . حلقة ضيقة من الناس فقط عرفت بوحدته وانكساره وبحبه الوحيد الضائع في السنوات الاخيرة .

النظرة الرسمية للشاعر هذه الايام جعلت منه أسطورة في مشاركته في المظاهرات السياسية في الحادية عشرة ، وانضمامه الى الحزب الديمقراطي الاشتراكي في الرابعة عشرة ، واعتقاله بعد أسابيع قليلة . دخوله كلية الاداب في الخامسة عشرة ، اعتقاله لستة أشهر في السادسة عشرة ، كتابته لقصائده الاولى التي صودرت بعد اطلاق سراحه ، ثم تخليه عن العمل في الحزب (لخلق فن اشتراكي) ، وفي الثامنة عشرة دخل كلية موسكو للرسم وكان لقاؤه بديفيد برلياك .

وفي زمن قيام الثورة ، اعتبر مياكوفسكي شاعرا ورساما (يصمم المنشورات الدعائية للثورة) . ثم التقى بـ « ليلي برك » امرأة حياته . كانت زوجة الناشر « أوسيب برك » ، وقد توفيت قرب موسكو في العام الماضي عن السادسة والثمانين .

كان مياكوفسكي يكتب الشعر طوال الوقت . لكن الغيوم بدأت تلوح في الافق . ففي عام ١٩٢١ مات الشاعر « الكسندر بلوك » ، واعتقل الشاعر نيكولاي غوميليوف وأعدم بتهمة التجسس . ثم كانت عذابات الشاعر مع ليلي . انه لمن الصعب محو اسم هذه المرأة من حياة مياكوفسكي . فأشعاره مهداة لها وقصائد الحب التي كتبها كانت تتغنى بها . لقد وجدت ليلي برك في مياكوفسكي شخصية مثيرة. الا أن هيامه بها فاق اعجابها به . وكان ينطوي على نزعة شديدة في التملك . ولم يكن هناك جدال في كشف سر هذه العلاقة . تركت ليلي مياكوفسكي لتخبر زوجها أنها قد أحبته . أحبت الشاعر

وسألته : ماذا علي أن أفعل ؟ . واجابها برك : انني أفهمك تماما ، فمن ذا يستطيع رفض مثل مایاکوفسکي . ثم أردف قائلا : ولكن ينبغي أن لا يحل الانفصال بيننا أبدا .

انتقل مایاکوفسکي الى فندق (القصر الملكي) ليكون قريبا من أسرة برك في بتروغراد . كانت ليلي تزوره في الظهيرة . وكان يزورهم ليلا للعب الورق والتحدث الى أوسيب . لم يبد أوسيب الغيرة بل بدا عليه شعور بالارتياح . لقد اتجهت ليلي الى مایاکوفسکي بعد أن كانت تصب شكواها عليه .

في شتاء عام ١٩٥١ ، قدم الى بتروغراد صديق اخر . كان الشاعر « بوريس باسترناك » قد فوجيء بحال مایاکوفسکي التي تغيرت كثيرا . في موسكو كان مسحورا بارادة مایاکوفسکي الحديدية وتصميمه على أن يكون شاعرا . ولكن خلف جرأته وصراخه استشف باسترناك خجلا وكآبة عميقة ، ووراء الحرية الظاهرة كانت ثمة حاجة شديدة الى الحرية ، وبدا لباسترناك أن مایاکوفسکي قد وجد في أسرة برك في بتروغراد الاصدقاء الذين يفهمونه .

لم يحاول مایاکوفسکي أو ليلي اخفاء سر العلاقة منذ البداية . وبالفعل ، فان أشعاره التي كتبها في الشهور التالية تفضح كل محاولة . لقد ساقته الى عاصفة من الغيرة بتمنعها تارة ومفاجأته بلامبالاتها تارة أخرى . لقد أحبته ، لكنها رفضت أن يتملكها . وبتلك المزاجية الماكرة فرضت سطوتها .

في غضون أشهر قليلة ، تحولت شقة برك الى صالون أدبي للمستقبليين . وبدأت الحرب تدق طبولها . ومضى هؤلاء في مجادلاتهم ولم يكن ما يحدث في الخارج ذا أهمية . لقد أصبح برك أكثر من مجرد ناشر لمایاکوفسکي . وكان أكثر الاصدقاء المثقفين قربا اليه . وبمساعدة غوركي وجد مایاکوفسکي عملا في الجيش بوظيفة مصمم في مدرسة بتروغراد للسيارات .

عرف مایاکوفسکي بأنانيته ازاء بعض النساء اللاتي لا يثرن اهتمامه ، ولما لم يجد طريقا لامتلاك ليلي ، كان يهددها في لحظات يأسه بالانتحار، لكنها رفضت أن تحمل هذا التهديد على محمل الجد . في احدى الصباحات الباكرة من عام ١٩١٦ استيقظت ليلي على رنين الهاتف . التقطت السماعة ليتسلل الى أذنها صوت مایاکوفسکي الواهن : (سأطلق النار على نفسي ، وداعا يا ليلي) .

كان أمرا غير متوقع أن تصرخ ليلي : (كلا ، انتظرني) ، وارتدت ثيابها على عجل واندفعت أسفل السلم لتستقل سيارة . وعندما وصلت غرفته فتح لها مایاکوفسکي الباب ليخبرها ان المسدس قد خانه ولم تكن له الشجاعة الكافية ليطلق الرصاص ثانية . شعرت ليلي بخوف رهيب . وتتذكر : (أعطاني الرصاصة ، ولاول وهلة اعتقدت انه أراد أن يخيفني ، أن يقنعني) .

ووضعت الثورة حدا للصالون الادبي الذي كان يحييه المستقبليون في شقة أسرة برك . الا أن أناسا كثيرين كانوا يرتقون السلالم للزيارة والتحدث في السياسة .

لقد شارك مایاکوفسکي منذ اللحظة الاولى في الصراعات السياسية والجمالية التي كانت تدور انذاك لكنه كان قليل التجربة ليفرض تأثيره . ولما كانت أفكاره فردية جدا ، فلم ينضم الى المجموعات التي أخذت تتشكل بسرعة .

كان يشيد بلا كلل بدور المستقبليين في المجتمع الجديد . وطالما عبر عن رغبة الفنانين الملحة في مناخ سياسي يحررهم من الرقابة والسيطرة . ودخل في صراع مع غوركي الذي كان يحاول منع تدمير الاعمال الفنية والمكتبات عقب الانتفاضة الفلاحية في الريف .

وانتقل مایاکوفسکي وأسرة برك من بتروغراد الى موسكو ليتبعوا الحكومة الجديدة . كانت المدينة تغص بالسكان . وخصصت غرفة صغيرة بطول ١٢ قدما وعرض ١٠ أقدام لاسرة برك . وشارك مایاکوفسکي الاسرة في الغرفة .

تتذكر ليلي : (في غرفتنا الوحيدة ، كان هناك سريران وثالث يمكن سحبه من الحائط . كان مایاکوفسکي ينام في هذا السرير وعند قدميه يرقد كلبنا (أسجن) . علقنا السجاجيد على الحائط لنشعر بالدفء . كان هناك موقد وفرن تحرق فيه الصحف القديمة التي يتركها النزلاء قبلنا) .

بعد ستة أشهر من قدومه الى موسكو ، وجد مایاکوفسکي عملاء في قسم الدعاية في روستا . وكان عليه أن يكتب ثمانين بيتا من الشعر المقفى يوميا للبوسترات . وكانت ليلي تعمل في روستا أيضا . وبعد ستة أشهر سقطت ضحية المرض بسبب سوء التغذية . وحاول مایاکوفسکي يائسا العناية بها . في تلك الشهور، كانت الخضار أغلى من الجواهر وبصعوبة بالغة أفلح مایاکوفسکي في العثور على قطعتين من الجزر . ولما كان

هناك الكثيرون ممن يعملون في روستا ، فان ليلي لم تكن بحاجة الى تلوين البرسترات ، ورافقت مایاکوفسكي في قراءاته الشعرية خارج موسكو . سافرا معا الى بتروغراد بأحد القطارات المزدحمة . وكانا يحجزان غرفتين على الدوام . كانت ليلي تقول انه ضخم وليس من المريح النوم الى جانبه . وكانت تمزح قائلة : (كفن واحد أفضل من سرير لشخصين) !!

كانت ليلي تلجأ أحيانا الى عشاق اخرين وحين تخيب امالها تعود الى (فولوديا) ، كما كانت تدعو مایاکوفسكي . ولكنه لم يكن يعلم شيئا عن أمر هذه العلاقات . وكان كعادته يعمل بجد ، يكتب المسرحيات القصيرة والقصائد .

لم تعمل ليلي في روستا بعد صيف ١٩٢١ . وتركت محاولاتها في النحت حين لم تقتنع بموهبتها الصغيرة . كانت ليلي امرأة جميلة ، وحين قاربت الثلاثين بدأ الخوف من الكبر يتسلل الى نفسها . وكان مایاکوفسكي يصغرها بسنتين . وكثيرا ما حاول أن يسري عنها حين تبدي تذمرها من وجوه النساء المسنات المتجعدة المثقلة . واخبرها هو الاخر انه لا يريد العيش بعد الثلاثين . وكان يقول لها : (أنت لست امرأة ، بل استثناء) . وكانت تسأله : (وماذا عنك ، ألست استثنائيا جدا ؟) . ولم يحر مایاکوفسكي جوابا .

مرت ست سنوات . وشعرت ليلي أن حياتها راكدة تماما وان علاقتهما لم تعد مثيرة كما كانت . وبدأت تغير الامور لصالحها . كانت والدتها قد وجدت عملا في البعثة التجارية السوفييتية في لندن وأخذت ترسل لها جوارب حريرية ومستحضرات تجميل وعطور ، شيء من هذا لم يكن موجودا في موسكو . وقررت ليلي زيارة والدتها في لندن تخلصا من الملل الذي حل بحياتها . في اكتوبر ١٩٢١ غادرت موسكو بالقطار الى ريغا للحصول على تأشيرة السفر تاركة مایاکوفسكي وراءها .

في ١٨ اكتوبر ١٩٢٢ غادر مایاکوفسكي وبرك معا الى برلين للحاق بليلي التي قدمت من لندن مع صديقتها الزا . وفوجئت المرأتان بمایاکوفسكي الذي بدا فظا مضجرا .

تغيرت حياة مایاکوفسكي مع ليلي بعد عودته من أميركا في نوفمبر عام ١٩٢٥ .ولم يعودا حبيبين كالامس. وكان هذا قرارا طالما وجدت ليلي صعوبة في اتخاذه لكنها اعترفت به أخيرا .

بعد عشر سنوات قضياها معا ، بدأت حياة مایاکوفسكي مع أسرة برك تدخل في اتجاهات مختلفة . كان الثلاثة يجدون مبرر طريقة حياتهم في كتاب تأثروا به وأثر في أجيال من المثقفين الماركسيين ومنهم لينين . كان ذلك الكتاب رواية (ما العمل ؟) لنيكولاي تشيرنيشيفسكي ، احدى أشهر الروايات الاصلاحية في القرن التاسع عشر . تتذكر ليلي : (كان تشيرنيشيفسكي يتحدث في الرواية باسمنا . وحين كنا نواجه مشكلة كان أمامنا اختياران ، اما ان نحتكم الى بعضنا أو نلجأ الى تشيرنيشيفسكي . كانت فلسفته قريبة جدا الينا . الناس الان لا يفهمون شيئا من حياتي مع برك ومایاکوفسكي . يعتقدون انها خطيئة مروعة . لكنا كنا نحلم بحياة من نوع كامل . الحياة التي دعا اليها تشيرنيشيفسكي والتي ينبغي ــ برأيه ــ أن تكون . لقد قاد تشيرنيشيفسكي أفكارنا) .

لقد شجع برك ليلي على الشروع بحياتهما بالروح نفسها التي تحملها شخصيات رواية تشيرنيشيفسكي . في الرواية . للزوج والزوجة غرفتان منفصلتان . وصالة صغيرة للطعام وتبادل الاحاديث واستقبال الضيوف . فبرأي تشيرنيشيفسكي ، لا ينبغي للزواج أن يحد من حرية أي من الطرفين .

ومهما تكن ارتيابات مایاکوفسكي الداخلية في المجتمع ، فقد أصبح الان من الشخصيات القائدة في الادب السوفييتي . وبدأ يتجه الى الموسيقى ، الى شوستا كوفييج الذي كان في الثامنة والعشرين وأحرزت سمفونيته الاولى نجاحا كبيرا ، وحققت مسرحية مایاکوفسكي نجاحا ساحقا . وفي اليوم التالي ودون انتظار آراء النقاد ، أسرع مایاکوفسكي الى باريس حيث كان على علاقة بفتاة في الثامنة عشرة تدعى تاتيانا . كانت عائلة تاتيانا قد تشردت اثر الحرب الاهلية في روسيا . وكانت تحفظ قصائد « اخماتوفا » و « بلوك » عن ظهر قلب وتحب الشعر مثلما يحبه هو ، وكما ان مایاکوفسكي لم يكتب قصائد الحب من قبل الا لليلي ، فلم يعد يكتبها الان الا لتاتيانا .

عندما عاد مایاکوفسكي الى موسكو وقرأ لليلي قصائده عن تاتيانا بكت . ولم ينته حزنها سريعا ، كانت متألمة تماما ، وحاولت أن تضع حدودا لعلاقتهما ، الا أن أيا منهما لم يتقبل هذه الحدود .

انهى مایاکوفسكي كتابة مسرحية (الحمام) في أيلول ١٩٢٩ وأسرع الى اعداد ترتيبات سفره الى باريس . ولكن لم يلبث أن بعث الى تاتيانا برسالة يائسة. كانت أشد رسائله اليها حزنا . لقد رفض طلبه في الحصول على تأشيرة السفر ولم يسمح له بمغادرة الاتحاد السوفيتي .

في ١٨ شباط ١٩٣٠ غادرت أسرة برك موسكو الى لندن لزيارة والدة ليلي . وحل منتصف نيسان ولم يكونا قد خططا للعودة بعد . وكان من الصعب على مایاکوفسكي أن يمضي شهرين في موسكو دون عائلة برك . لقد انفصل عنهما من قبل لكنها المرة الاولى التي يغادران فيها المنزل

معا . كان لا يزال بحاجة الى حب ليلي ومشاعرها والتحدث الى برك عن أعماله .

في ١١ نيسان وقبل أسبوع من عودة ليلي وزوجها الى موسكو ، أهمل مایاكوفسكي احدى محاضراته لاول مرة . كان « بافيل لافو » ، وكيله ، قريبا منه وقد أصابه القلق لحالته الغريبة ولم يعرف كيف يتصرف معه . كذلك أصدقاؤه الاخرون ، وصديقته الاخيرة « نورا بولونسكايا » .

أطلق النار على نفسه بالرصاصة الوحيدة المتبقية في مسدسه . وترك ملاحظة :

لكم جميعا . لا تلوموا احدا لموتي . وارجو ان لا تثيروا الضجة . أمي ، أخواتي ، رفاقي ، سامحوني . هذه ليست وسيلة جيدة (ولا أدعو الاخرين اليها) ولكن بالنسبة لي ليست هناك طريقة اخرى .

« ليلي
أحبيني
قارب الحب تحطم
أنا والحياة هربنا
وليس ثمة جدوى
في أن نحصي
آلامنا ، وأذانا
وهزالنا
حظا سعيدا لك ــ فلاديمير مایاكوفسكي »

بعد موته كتبت ليلي :

(لماذا أطلق فولوديا الرصاص على نفسه ؟ السؤال معقد والجواب كذلك . لقد أحب مایاكوفسكي الحياة بشوق كبير . أحب كل تجلياتها ، أحب الثورة ، الفن العمل ، أنا ، المرأة ، الاثارة ، والهواء الذي يتنفس . لقد ساعدته طاقته المدهشة على دحر كل العقبات . لكنه أدرك انه غير قادر على دحر الكبر . وبخوف رهيب راح ينتظره منذ صباه المبكر) .

أكثر من مئة وخمسين ألفا ساروا وراء جثمانه . وغصت شوارع موسكو بمواكب المشيعين .

صدر حديثا :

طيور بعد الطوفان

للشاعر

ياسر بدرالدين

يصلك عبر لوحاته الملحمية بأدق الامكنة حساسية ، حيث ترتفع اغاني الوجدان المعذب لتمتزج بعذابات النفس التواقة الى الخلاص.. النيران في كل مكان . تشبّ من البقايا ومن البدايات ، والرياح تحرك الصواري التعبة ، والايقاع دافىء وهادىء أو بارد متضجر .

انه المعادلة الاصعب لحركات بطيئة وسريعة ، تنبعث وتتلاشى على الشواطىء والسفوح والمطلات ، انه المعادلة الانقى لحب قديم فجّر الرواسب وحرّك الحي من جذوره ، وهو المعادلة الشاملة حيث يبدأ النمو بين الخرائب الرمادية والاسواق العائدة الى الحياة .

« طيور بعد الطوفان » مجموعة من اللوحات الرومانسية النافرة بشكل أجنحة تطير نحو عالم أجمل وأقوى .

منشورات دار الآداب